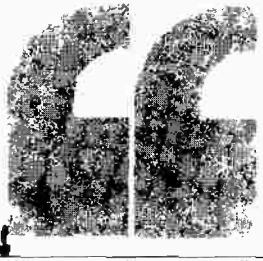

زيارة الى الأمل

شمال سيناء ..

صندوق من الذهب !

معركة الرمل والطين ..

التعمير وملء الفراغ !

ازالة الحواجز ..

سيناء والسلام الموعود !

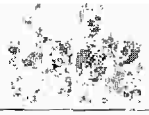

شمال سيناء..

فى مثل هذه الأيام قبل ١٤ عاما، كانت مصر قد بدأت تجنى ثمار عملية السلام التى بدأها الرئيس السادات فى أعقاب حرب أكتوبر.. عندما نفذت اسرائيل أول مرحلة من مراحل الانسحاب فى المنطقة «أ» الواقعة بين العريش ورأس محمد..

عادت هذه اللحظات الغالية إلى ذاكرتى حية نابضة..

وتذكرت الاحتفال البسيط الذى أقيم فى ساحة صغيرة أمام المبنى القديم المتهالك للادارة المحلية فى العريش. عندما التهبت الأكف بالتصفيق، وفاضت الأعين بالدموع بينما كان الرئيس الراحل يقبل علم مصر ثم يرفعه على ساريته المطلة على صحراوات سيناء.. إيذانا بمرحلة جديدة، تنهى دنس الاحتلال الاسرائيلى لبقعة غالية من أرض الوطن.

وانساب شريط من الأحداث . .

بعدها بثلاثة أعوام وفى الموعد نفسه تقريبا تم الانسحاب الاسرائيلى الكامل من سيناء. ورفع الرئيس مبارك علم مصر فوق شرم الشيخ ورفح كآخر مرحلة للانسحاب، باستثناء نقطة طابا الحدودية الصغيرة. . التى شهدت محاولات اسرائيل المستميتة فى التمسك ولو ببضعة أمتار من سيناء، وذلك قبل أن يحسم التحكيم الدولى الخلاف لصالح مصر.

ولابد أن يقال فى هذا الصدد أن مصر دخلت معركة السلام بنفس الايمان والتصميم الذى دخلت به معارك الحرب فى أكتوبر. . لديها هدف واضح محدد لاتحيد عنه. . ولديها فهم سياسى واقعى لعالم تتغير معطياته وشروطه وموازينه عاما بعد عام. . ولديها إدراك عملى بأن بطء الحركة والفهم فى العالم العربى لاينبغى أن يعفيها من حق المبادرة والمناورة والتعامل مع الواقع الدولى الجديد. .

ولذلك فحين فرضت الأوضاع الدولية على العالم العربى أن يعيد حساباته فى قضية الصراع مع اسرائيل، كانت مصر قد انتهت من مرحلة التكيف وسبقت غيرها فى استيعاب الدرس وأغلقت ملف الخلافات العربية بوعى جديد وفهم جديد. . ولعب الرئيس مبارك دور الربان الماهر وهو يقود السفينة بحذر بالغ وسط بحار عاصفة ومظلمة، مازالت سحبها تخيم فى الأفق.

إحدى عشر سنة كاملة مضت منذ آخر مرة زرت فيها سيناء. . وخلال هذه السنوات، انصرفت جهود الدولة إلى إعادة ترتيب البيت

وإصلاحه وترميمه.. تحققت إنجازات كبيرة ووقعت أخطاء كثيرة، والذين لا يعملون هم وحدهم الذين لا يخطئون، وقد نجسد نحن الأخطاء ونبالغ فيها لأننا نتوقع الكثير..

ولكنك حين تذهب إلى سيناء فلابد أن تنتعش روحك بالأمل.. وقد كانت زيارتى إلى شمال سيناء هذه المرة بمثابة زيارة إلى الأمل!!

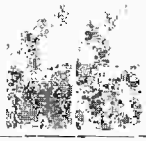

صـــندوق مـن الذهـــب!

يقول العالم والمفكر الراحل جمال حمدان عن سيناء فى كتابه الموسوعى الرائع «شخصية مصر»: إن سيناء ليست مجرد «صندوق من الرمال» كما قد يتوهم البعض.. إنما هى «صندوق من الذهب»، مجازا كما هى حقيقة.. استراتيجيا كما هى اقتصاديا.. سيناء ليست مجرد فراغ أو حتى عازل، إنما هى عمق جغرافى، وإنذار مبكر، يمكن أن نشترى فيه الزمان بالمكان..

وحين عبرت بنا السيارة قناة السويس من القنطرة غرب إلى القنطرة شرق فى طريقنا إلى العريش، وتنسمت هواء سيناء الصحراوى الجاف، ووقعت عيناى على منابت الخضرة المتناثرة وسط كثبان رملية متماوجة.. تذكرت ما قاله جمال حمدان.. نسيت متاعب القاهرة وزحمتها، وزالت عن عقلى غشاوة الهموم التى فجرتها أحداث الارهاب، وما ألحقته أو يمكن أن تلحقه بمصر من خسائر وكوارث

اقتصادية وسياسية، وانزاح جو القلق والتشاؤم والتوتر، ليحل محله إحساس بالتفاؤل والأمل تحت هذه السماوات المفتوحة والمساحات الشاسعة بلا نهاية..

ومنذ رفع الرئيس السادات شعار تعمير سيناء بعد تحريرها، وبدأت فى عهد الرئيس مبارك أوسع عملية تعمير شهدتها أرض سيناء فى تاريخها القريب والبعيد.. تدفقت استثمارات كثيرة على جنوب سيناء أوشكت أن تغير وجه الطبيعة بالمنشآت السياحية المتناثرة على طول الساحل الذهبى من شرم الشيخ إلى طابا على البحر الأحمر وخليج العقبة..

والذى لاشك فيه أن هذه المنطقة قد اجتذبت اهتمام الدولة بصفة خاصة.. نظرا لما أصبحت تمثله صناعة السياحة بكل أبعادها من أهمية كمصدر للدخل.. واجتذبت إلى جانب ذلك كثيرا من المشروعات ورؤوس الأموال الخاصة التى وجدت فى شواطئها أرضا بكرا لنشاط سياحى متنوع يأتيه السائحون من جميع أنحاء العالم.

ولكن المعجزة الحقيقية التى أذهلتنى، والتى اعتقد أنها تستحق مزيداً من الاهتمام والرعاية من جانب الدولة، هى تلك الثورة الزراعية التى شهدتها محافظة شمال سيناء.. والتى يمكن أن تجعل منها أرضا للخير والنماء، ومجالا لتوسع زراعى هائل، سوف يضارع ـ لو اهتممنا به الاهتمام الكافى ـ كل ما حققته اسرائيل من تقدم فى مجال الزراعة وتحويل الرمال الصفراء إلى خضرة زاهية..

واذكر إننى حين زرت هذه المنطقة قبل نحو عشر سنوات، لم

يكن للون الأخضر وجود إلا فى بعض بقع متناثرة قرب رفح على امتداد الساحل. . وكانت أشجار النخيل الباسقة تزين ساحل العريش وتتكاثر داخل الوادى فوق رمال صفراء داكنة. . ولكنك تمد البصر الآن فى سهل العريش المنبسط أمامك، فيختلط عليك الأمر وتتساءل: هل هذه هى ما كانت بالفعل صحراء سيناء؟

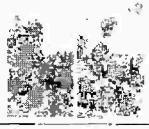

معركة الرمل والطين..

لو أخذنا بما نسمعه ونقرأه من تصريحات رسمية حول مساحات الأراضى التى تم استصلاحها واستزراعها فى الوادى، والتى يعلن عن توزيعها كل يوم على صفحات الصحف، لخيل إلينا أن عدة ملايين من الأفدنة قد تم استصلاحها بالفعل، وأن الرقعة الزراعية فى مصر قد زادت بما يفوق الخيال!

ولكن مانراه من أراض مستصلحة على جانبى الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية، وبعمق لايتجاوز بضعة كيلومترات يؤكد أن هذه الأراضى قد نالت من الدعاية أكثر مما تستحق.

وعلى العكس من ذلك تماما ما جرى فى شمال سيناء.. المحرومة من مياه النيل، والبعيدة عن الوادى وعن تركيز الأضواء الحكومية ودعايات المسئولين، والتى تعتمد فى الزراعة بالتنقيط على مياه الأمطار والآبار.. قفزت فيها رقعة الأراضى المزروعة خلال هذه

السنوات من ٦٠٠٠ فدان إلى نحو ٣٠٠ ألف فدان، تم استصلاحها وزراعتها بالجهود الذاتية دون مساعدة من جيوش الموظفين الجرارة فى الزراعة واستصلاح الأراضى، ودون تدخل البيروقراطية المصرية العتيدة، ودون حملات إعلانية باهظة عن مصر الخضراء والصفراء، ودون حاجة إلى مهرجانات موسمية لتوزيع الأراضى وتقسيمها وبيعها بالمزاد.. لتترك بعد ذلك تحت مصير القدر حتى تستردها الصحراء مرة أخرى!

والذى حدث فى سيناء هو معجزة بكل المقاييس.. تكذب كثيرا من الادعاءات والصور المغلوطة، التى قدمت أهالى سيناء على أنهم قبائل من البدو الرحل الذين يعيشون على التهريب ولا يعرفون الزراعة. أو أن استصلاح الأراضى وزراعتها لايتم إلا بتدخل من الدولة وبمساعدتها!!

فلقد دارت معركة حامية بين الطين والرمل على أرض شمال سيناء خاضها أهالى سيناء فى صمت دون أن يحس بهم أحد. وحسمت لصالحهم بعيدا عن الأضواء. لتقدم الدليل على صورة من صور النجاح الحقيقى للانسان المصرى، حين تتفجر طاقاته بعيدا عن الروتين، وبقدر كبير من الفهم والجرأة والتشجيع الذى لم يبخل به محافظ شمال سيناء منير شاش، والذى ركز دور الدولة على إقامة المرافق والطرق والبنية التحتية، وحل مشاكل الملكية حلولا غير روتينية.

ولعل هذا ما حدا وزير التعمير إلى الاعلان أخيرا عن أن الدولة وفرت من ميزانيتها ملياري جنيه، ولم تتكلف أكثر من ٢٠ مليون

جنيه كمنح للأهالى لزراعة ٣٠٠ألف فدان شرقى العريش . . تراها على امتداد البصر مزروعة بأشجار اللوز والخوخ والبرقوق والخضروات، فضلا عن القمح والشعير لأول مرة فى سيناء . .

منظر يشرح العين والصدر!!

التعمير وملء الفراغ!

فى شمال سيناء تستمع الى قصص كفاح ونجاح لأفراد مصريين عاديين.. لا تقف وراءهم دولة، ولا شركة عالمية، ولا رؤوس أموال عربية، ولا شخصيات كبيرة، أو صغيرة..

معظمهم بدأ من نقطة الصفر: مدخرات قليلة يستصلح بها بضعة قراريط من أرض عفية خصبة، لا تحتاج إلا إلى قطرات الماء، وقدر من الحب والرعاية، وشتلات جيدة مهجنة يتم استيرادها من الخارج، أو استزراعها فى كلية الزراعة البيئية فى العريش.. فسرعان ما تؤتى أكلها، وتزهر الأشجار بثمارها. ثم تمتد القراريط القليلة إلى عشرات الأفدنة، مزروعة بأشجار الزيتون واللوز والفواكه والمحاصيل غير التقليدية.

وقد أغرت هذه النهضة الزراعية بعض كبار المستثمرين من أهالى سيناء على استثمار أموالهم فى الزراعة.. ومن بينهم عدد من الذين

نجحوا فى جمع ثروات من العمل فى الدول العربية الشقيقة، وعادوا بمدخراتهم إلى بلادهم.. وقد سمعت قصة صيدلى كبير كان يملك صيدليتين فى العريش. باعهما واستقر فى منطقة شرقى العريش استصلح أرضها دون جهد كبير، وأنشأ واحدة من كبرى المزارع هناك.

وجانب كبير من إنتاج الفواكه والخضروات يتم تصديره إلى الدول العربية المجاورة. وإن كانت مشكلات التسويق مازالت من أصعب المشاكل.. لأن حلها يعتمد على دراسة دقيقة للأسواق الخارجية، وعلى إنشاء شركات تستخدم أحدث الأساليب فى التصدير والتغليف والشحن للصمود فى المنافسة العالمية. خصوصا أن الخبرة الاسرائيلية لايمكن التهوين من شأنها فى مجال المنافسة.

وحين يبصر المرء كيف يولد الخصب من القفر، وكيف ينتزع الخير من الأرض الرملية المجدبة.. فان مشروع ترعة السلام الذى يجرى تنفيذه، ليعبر بمياه النيل من الوادى إلى شمال سيناء، والذى يساعد فى تمويله صندوق الإنماء الكويتى، سوف يحقق ثورة زراعية أوسع مدى وأخطر أثرا.. لونجحنا فى تنفيذه على الوجه الأكمل.. ليساعد على استزراع مساحات شاسعة فى سهل الطينة وفى أراضى فسيحة منبسطة تتراوح بين ٣٠٠ ألف إلى ٧٠٠ ألف فدان!

أهم شئ كما يقول الخبراء هو استخدام أساليب الرى الحديثة التى تقتصد كل نقطة ماء وتحسب حسابها، وإلا تستخدم وسائل الرى التقليدية التى تستخدم فى دلتا النيل...

غير أن الأهم من ذلك هو أن توضع من الآن الدراسات الدقيقة اللازمة، لتعمير هذه المناطق البرية فى شمال سيناء وألا تستخدم نفس الأساليب الفاشلة التى استخدمت لتمليك الأراضى فى الوادى. وأن تحدد نسبة من الأراضى المستصلحة لأهالى سيناء، ويتم اختيار النازحين من الوادى إلى سيناء طبقا لشروط معينة، تتلاءم مع الوضع الاستراتيجى الخاص لسيناء . . بعد أن ثبت أن الفراغ العمرانى هو الذى كان ومازال يدعو الأطماع الحاقدة إلى ملء الفراغ!

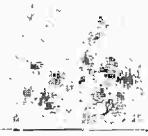

ازالـــــة الحواجـــز..

تستطيع سواء كنت مصريا أو أجنبيا أن تعبر الضفة الغربية من قناة السويس إلى الضفة الشرقية فى سيناء دون أن يسألك أحد أو يفتشك أو يتحقق من شخصيتك..

ولكنك لو أتيت قادما فى الاتجاه العكسى من سيناء إلى الوادى فلابد أن تخضع للتفتيش والتدقيق والتشكيك. لالسبب إلا لأنك عبرت خط الحدود بين شبه جزيرة سيناء ووادى النيل!!

ولا أحد يعرف الحكمة فى ذلك فمنذ تحررت سيناء وعادت إلى أرض الوطن، أنشدنا الأناشيد والأغانى، وندمنا على مافرطنا، فى حق هذه الأرض المقدسة التى تركناها فراغا ونسيناها يبابا حتى أغرت الطامعين بالاستيلاء عليها فى حرب ٦٧..

وعندما قررنا أن نزيل الحواجز التى جعلت من سيناء بالنسبة

للمصريين مجرد رسم على الخريطة لا يعرفون عنها شيئا، نسينا أن نزيل الحاجز النفسى.. فبقيت هذه الشكليات غير المبررة التى يصر عليها بعض المسئولين والتى تشعر أهالى سيناء بأنهم ليسوا جزءا من مصر، وتشعر أهالى الوادى بأن سيناء مازالت بعيدة عنهم. فى وقت سقطت فيه الحدود والحواجز بين الدول فى أجزاء أخرى من العالم، ولاتمثل عمليات التفتيش غير عبء نفسى على أهالى سيناء يجعلهم يشعرون كأنهم أغراب..

هذه شكوى نسمعها بمرارة شديدة من الناس هناك.. يضاعف منها الانتظار الطويل أمام العبارات أو المعديات التى تنقلك من ضفة إلى أخرى.. فى وقت لم يعد هناك معنى لأن يظل ارتباط سيناء بمصر الوادى عبر القناة، رهنا بكوبرى سكة حديد تم تدميره عدة مرات (كوبرى الفردان) أو بمجموعة من المعديات تعترض تيار الحركة فى القناة.. وهى مشكلة تحتاج إلى حلول دائمة وقد تحتاج إلى استثمارات ضخمة فى المستقبل القريب، ولكنها تساوى ما ينفق عليها، بالنظر إلى الأهمية المتزايدة لسيناء.

إن النهضة الشاملة التى تشهدها سيناء بالتعمير السياحى فى الجنوب والتعمير الزراعى والعمرانى فى الشمال.. تفتح آفاقا جديدة لسكان الوادى الذين أوشكت أن تضيق عليهم الأرض بما رحبت. ولكن سيناء بحاجة إلى نظرة جديدة واستراتيجية جديدة.. ولابأس من النظر فى إمكانية وضع شريعات ونظم خاصة لسيناء، على نمط العاشر من رمضان، تخرجها من البيروقراطية المطبقة فى أجزاء

أخرى.. وتدفع بأنشطة الأفراد والشركات فيها علىٰ أساس اقتصاديات السوق، بما يحقق الأمان لأهلها والنازحين إليها.. فى ظل احتمالات السلام القادم والأوضاع التى ستترتب عليه فى المستقبل القريب..

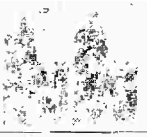

سيناء والسلام الموعود!

استؤنفت محادثات «الفرصة الأخيرة» لسلام الشرق الأوسط فى واشنطن، فى نفس الأسبوع الذى احتلفت مصر فيه بمرور ١١ عاما على تحرير سيناء من الاحتلال الاسرائيلى..

وقد كان ومازال انسحاب اسرائيل الكامل من شبه جزيرة سيناءالتى تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة اسرائيل، هو الثمن الذى دفعته اسرائيل مقابل السلام.. تطبيقا للمبدأ الذى على أساسه تجرى الآن محادثات واشنطن «مبدأ الأرض مقابل السلام».

ولعل أهالى سيناء هم أول من ذاقوا طعم اتفاقيات السلام التى عقدت بين مصر واسرائيل وعرفوا ماذا تعنى على أرض الواقع.. هم أول من تعاملوا مع الاسرائيليين كعدو، ثم تعاملوا معهم كجيران على الجانب الآخر من الأسلاك الشائكة فى ظل سلام بارد، وسوف يكونون أول من يتعامل معهم فى ظل العلاقات الإقليمية الجديدة حين يتم التوصل إلى اتفاق سلام شامل.

وبين مصر واسرائيل الآن اتفاقيات سلام تحكم العلاقات الحدودية والأمنية والعسكرية. وفى ظل اتفاق المبادئ الذى تم التوصل إليه أخيراً بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل.. فسوف تنشأ أوضاع جديدة، وعلاقات جديدة.. يدخل فيها الطرف الفلسطينى هذه المرة كطرف ثالث أيا كانت طبيعة الكيان الفلسطينى الذى ستتمخض عنه الاتفاقيات.

وفى وقت يجرى فيه الحديث همسا عن إنشاء سوق موحدة للشرق الأوسط تضم مصر والدول العربية واسرائيل فإن ملامح الموقف سوف تتغير تغيرا كليا من المواجهة إلى التعاون. وسوف تكون سيناء هى الجسر الذى تلتقى فوق أرضه كل أشكال التعاون أو التنافس أو الاحتكاك أو التعامل..

وهذه كلها أسباب تثير مخاوف أهالى سيناء وقلقهم.. فى ضوء المتغيرات التى ستحملها اتفاقيات السلام. فالمسافة مازالت واسعة بين التوازن السكانى والصناعى والانتاجى فى سيناء والجانب الآخر سواء كان هذا الجانب فلسطينيا أو اسرائيليا. وعلى الرغم من أن حركة الأحداث فى المنطقة تجرى بسرعة كبيرة، فإن أهالى سيناء يشعرون بأن الدولة لم تعد عدتها لمواجهة هذه الاحتمالات، ولم تفعل شيئا لإعدادهم نفسيا وعمليا وتشريعيا واقتصاديا، وقبل كل شئ أمنيا لمواجهة الأوضاع الجديدة..

وبالنسبة لسيناء التى ظلت عبر تاريخها معبرا وطريقا لمعظم الغزوات التى تعرضت لها مصر، وظلت فى نفس الوقت درعا للدفاع

عن مصر، فإن مفهوم التنمية والتعمير مع مراعاة البعد الأمنى سيظل هاجسا لايمكن تجاهله. وأكثر الناس إحساسا بذلك هم أهالى سيناء أنفسهم.